أنا . . . والقـــلم

للأستاذ على الطنطاوى

[بين يدى الآن رسائل من بيروت وحمص وبغداد والأسكندرية وأم درمان من إخوان كرام ما كان لى شرف الاتصال بهم ، كلهم يسألنى لم لا أكتب فى الرسالة فى هذه الأيام ، ويشفق أن تكون الأرزاء قد هدت ركنى وكسرت قناتى .. فكتبت هذا الفصل هدية إليهم وجواباً]

« ع »

أعترف أنها قد جفّت قريحتى فما تبضّ بقطرة ، وكلّ ذهنى ، ومات خيالى ، ومرت علىّ أيام طوال لم أستطع أن أخط فيها حرفاً ، وعدت من البرّ والحصر كأول عهدى بصناعة الإنشاء ، وأصبحت وكأنى لم أكن حليف القلم وصديق الصحف ، وكأنى لم أجر للبلاغة فى مضمار ... وما أدرى أأبرأنى الله من حرفة الأدب التى ابتلانى بها وابتلاها بى ، أم هى سكتة عارضة وعُقلة مؤقتة ، كالذى يعرض للشعراء والكتاب ، ثم تزول السكتة وينطلق اللسان ، ويعود أحدّ مما كان ؟ . وما أدرى أعلّة ذلك الزواج ، وقد قالوا إن زواج الأديب يؤذيه وتفور منه ينابيع فكره ، أم هى الرزايا والآلام ، وما يغيظ الأديب من انحراف الأمور عن صراطها ، وتقدم من حقه التأخر ، وتأخر من يستأهل التقدم ، وضياع الحقوق وغلبة الجهال ، أم هذه العزلة الحسية والروحية التى أبت إليها طوعاً أو كرهاً ، فجعلت حياتى كالبركة الساكنة ، لا يسقط فيها حجر فيثير أوحالها ويخرج دررها ؟

إنى كلما أخذت القلم لأكتب ، أحسست أنه يحرن ولا يطاوعنى زمامه ، وأنه يستعصى علىّ ويستعصم منى ؛ وأجدنى أميل إلى مطالعة كتاب ، أو أنظر فى صحيفة . فأقبل على القراءة ، وأعوض على ذهنى ما فاته منها فى هذا الزمن الطويل ، وإنى لا أزال أحتاج إلى تعلم كثير مما أجهل ، ولا يزال فى الكتب ما لا أستوعبه فى شهرين أو ثلاثة ، ولست قائلاً مقالة ذلك الدعىّ الذى زعم أنه قرأ ديوان الفرزدق فى خمسة عشر يوماً ، ولا والله ما يفهم قصيدة منه واحدة فى شهر ... ولا الذى ظن أنه علم كل شىء حتى ما يسائل واحداً عن علم مسألة لكى يزدادها ! فأسلمتنى المطالعة إلى الزهد فى الإنشاء ، ومال بى الزهد إلى إيثار الدعة وابتغاء السلامة ومحبة الخمول ، بعد الرغبة فى الذكر ، فسبحان مقلب القلوب ...

ولقد كنت أشكو الغربة وأضيق بها ، فصرت أشكو فقدها . وبا حبذا الغربة ، وأنعم بها مثيراً للشعور ، موقظاً للهمم . كنت أتألم منها فأصف ألمى ، وأشتاق فأصور شوقى ، وأرى فيها جديداً فأنتهه إليه ، فأكتب فيه ؛ فرجعت أمرّ على المشاهد غافلاً عنها لأنى ألفتها كلها وأعرفها ، ورجعت لا آلم ولا أسر ، ولا أقول إنى راض ولا مبتئس — وهذا لعمرى شرّ ما يمر على الأديب من الأحوال ، وهذا هو الموت ... ولربما شغلنى سفساف الأمور ، وأضاع علىّ الكثير من وقتى . وهل ينفع القراء أن يعلموا أن عملى منذ شهر الطواف فى أحياء دمشق من شرقها إلى المغرب ، ومن شمالها إلى القبلة ، أفتش عن دار أستبيض بها عن دارى (فى الجادة الخامسة) ، لأن حماقة صاحبها كرهت إلى جمال مستشرفها ، وطيب موقعها ... وأن أعصابى فى ثورة دائمة ، عفت معها الحياة ، من صبية عشرة — أحياهم الله لأبويهم — يسكنون الطبقة التى تحتنا ، لا يهدؤون لحظة ولا يسكنون ولا يفترون من بكاء أو صياح أو غناء ، أو قرع باب أو كسر شباك ؛ وقلبى يخفق وأعصابى تتمزق ، ولا أنتفع من نفسى بشىء . وإن شكوت إلى أحد سخر منى وضحك علىّ . فليتصور القراء مبلغ ما أجد من الضيق والأذى ، فيالیت أنى لم أعط ملكة الكتابة ، أو ليتنى إذ أعطيتها عرفت كيف أستفيد منها ، فما شىء أصعب على الرجل من أن يريد ولا يقدر أو يقدر ولا يريد ...

وليثق القراء أن يوماً يمرّ علىّ لا أكتب فيه شيئاً أو أعد فى نفسى شيئاً لأكتبه لهو يوم بؤس علىّ لا يوم نعيم ، وأن أول ما أفكر فيه إذا سرنى أمر أو ساءنى ، أو أعجبنى أو راعنى ، كيف أصوره وأعرض على الناس صورته كى أنقل إليهم شعورى ، وأقاسمهم عواطفى ، لا أفعل ذلك للشهرة والمجد الأدبى ، ولا للنفع ولا للضرر ، فقد بلغت من الشهرة ما يصح الوقوف عليه لو كانت الشهرة أكبر همى ، ولكنى رغبت عنها لأنى وجدت ما نلت منها لم يُغنى خيراً قط . ثم إنه ليس بين الرجل وبين أن يشتهر فى بلادنا بصفة الأدب إلا أن يكتب فصلاً أو فصلين ؛ فإذا هو ومن ملأ الأسماع أدباً حقاً وبلاغة باقية سواء ، ولكنى أكتب — علم الله — لأدفع عن نفسى الملل وما يصيبها من الألم إذا أنا لم أكتب ، فكأنى

أعمل بالغريزة التي تدفع النحل إلى اتخاذ العسل والعقارب إلى نفث السم ، وكل حي من الحيوان إلى ما سخر له من نفع أو ضرر . ولا أعلم أأحسن أم أسيء، ومتى يكون الإحسان وكيف يجيء، وكل ما أعلم أن فكرة تخطر على بالي تأتي بها نظرة أو سمعة ، فتنمو فيها حتى تملأ ذهني وتسيطر عليّ ، فلا أملك عن تدوينها تأخراً ، فآخذ القلم فإذا هي تجر وراءها أخوات لها ، وإذا أنا أمضي في الكتابة لا أكف حتى يكون القلم هو الذي يقف ، ثم أبعث بذلك إلى المجلة أو الجريدة ، فإذا أبطأت بنشره أو أهملته سخطت وثرت ؛ وإن نشرته فرحت به وقرأته بلذة ، فإذا مضى عليه يوم عدت إليه فرأيت عيوبه . فقلت ليتني نقصت من هنا وزدت من هناك ، وحذفت هذا أو أثبت ذاك . . . ثم لا يمنعني ذلك أن أعود إلى خلق من الإسراع كرة أخرى . ولقد حاولت التنقيح والصناعة مرة فأفسدت من حيث توهمت الإصلاح ، فعدت إلى طبعي . فإذا كان في الناس من يعجبه ما أكتب فالحمد لله . . .

وما سكت لقلة في الموضوعات ، ولكن لجفاف في القريحة . ولو كان بي أن أكتب لوجدت في كل شيء موضوعاً لفصل ، غير أنه لا بد من العاطفة والفن ، ولو كان الأدب الواقعي أن تسرد كل ما (وقع) لك لكان الناس كلهم أدباء ؛ ولكن الأدب الواقعي أن تأتي بالصورة الجميلة ، قد صقلها الطبع ، ورققها الخيال ، وزانها العبارة الصحيحة ، والسبك الدقيق . لكنك لا تخرج فيها عما (يمكن أن) يقع . . .

ولو أسعدتني القريحة لكتبت في وصف هذا الفتى الذي صحبنا في لجنة من لجان الامتحان كان فيها عالم الشام الشيخ بهجة البيطار ليصحح معنا أجوبة التلاميذ فكان كلما وجد استعارة أو مجازاً خط تحته خطاً ، وكلما وجد ترادفاً من اللفظ أو مزدوجاً من الجمل مد مدّة فوقه ، ثم نقص عليه من درجات التلاميذ درجة . فحاورناه في ذلك فكان من رأيه الذي تعلّمه في باريز وعلّمه التلاميذ الذين جاءوه معلمهم، أن المذهب الجديد ينكر ذلك ويعده غلطاً ، وكانت حجته القاطعة على صحة رأيه أنه رأيه . . . وبذلك دفع كل ما ردّ به عليه الشيخ ، وما بيّن له من سنن العرب في كلامها ، وما جرى عليه بلغاؤها وما نزل به الكتاب . . . ومال ناظر المدرسة إلى (رأيه . . .) لأنه هو وحده بيننا الذي يحمل شهادة التخصص في اللغة العربية من . . . باريز !

ولو أسعدتني القريحة لكتبت في التعليق على الامتحانات وما يكون فيها من الوساطات والشفاعات والالتماسات وما نالني منها ، وكم أبصرت في داري من وجوه ما كانت لتكون فيها لولا الحاجة . . . وطلب (الشفاعات) . . . وما يحيق بالمدرس المستقيم الشريف من عنت ومشقة ، وما يقال عنه وما يلقى . . . وما يتخذ التلميذ من طرق الغش والحيل ، فإذا أظهرتها وعاقبته عليها زعم أنك ظالمته، وتمسكن وجعل نفسه ضحية فأثار عليك الناس ، أو (تنمرد) واستكبر فبطش بك ، أو شتمك أو وكل بك من يقوم بـ (الواجب) !

ولو أسعدتني القريحة لكتبت في تاريخ الأدب فصلاً أجعل إهداءه للدكتور صليبا ليرى أن الله لا يستحيل عليه أن يمنح ملكة الأدب من لا يحمل شهادة اختصاص فيه . . . وأن الشهادة بلا علم ليست دائماً أفضل من العلم بلا شهادة . . .

ولو أسعدتني القريحة لوصفت هذا المشهد الذي يملأ النفس ألماً ، ويفجر القلب أسى ، منظر زميلنا المعلم الشاب (مصطفى شكري خسرو) الذي كان موعد زفافه اليوم ، وكان صحيحاً معافى ، فرئي اليوم نعشه يمشي إلى المقبرة وعليه غطاء سرير العرس ووقفت زوجته التي كانت ترقب الزفاف ، تشهد الدفن ...

مثل هذا الموضوع ينشد الأديب ويبتغي ، ينشد لحظات الإشراق والتجلي ، إذ يحس بأنه خرج من ذاته ، فدخلتها روح أخرى ، فطارت به إلى الملأ الأعلى ، فأراه ما لا تراه عين ، ولا تحيط بوصفه لغة بشر ، وإنما يصور بإشارات ورموز ترفع قارئها إلى هذا العالم النوراني العجيب

* * *

أما المشفقون علي ، الخائفون أن تلوى الحادثات قناتي ، وتهد ركني ، فليعلموا أني في أمان ، وأن رسالة الأديب أن يطاعن عن الحق ويناضل حتى تعلو كلمته ، أو يصرع دونه ، ولينظروا أيهما أسير في الناس وأشهر ، أورقة الشهادة الناطقة بفضل صاحبها ، أم مجلة يكتب فيها الأديب فيقرؤها مائة ألف ؟ وأيهما أقوى وأمتن، أهذا القلم الدقيق أم أرجل الكراسي التي يثبت عليها (أولئك) ويعلون بها ؟ وأيهما أحد وأمضى ، ألسان البليغ المفوه أم ألسنة ببغاوات الليصانس والدكتوراه ؟

إن لكل أديب رسالة ، فليعنّا الله على تأدية الرسالة

علي الطنطاوي